من أقاصيص الأولين

عرض وتقديم : سامية زكي

الخيزران :

كانت من نسل جارية لرجل من ثقيف ، ورات فيما يرى النائم ان الشمس والقمر يبزغان من جسدها ، وقصت رؤياها هذه على سيدها ، وما كان جوابه الا ان قال لها : لست من جواري مثلي ، انت تلدين خليفتين ـ

قدم بها سيدها الثقفي الى مكة ، وباعها في سوق الرقيق ، وعرضها الذي اشتراها على الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور ، الذي قال لها : من اين انت ؟

قالت : مولدي مكة ، ومنشئي بحرش .

قال : أهلك احد ؟

قالت : مالي أحد الا الله ، وما ولدت امي غيري .

فقال المنصور لأحد غلمانه : اذهب بها الى المهدي ، وقل له : انها تصلح للولد .

أتى بها الغلام الى حيث امره الخليفة ، وعرضها على المهدي الذي قال لها : والله يا جارية انك لعلى غاية المنى .

وقعت من المهدي موقعا حسنا ، وحظيت عنده ، وولدت له ولدين صار كل منهما خليفة للمسلمين فيما بعد . أما أولهما فهو موسى الهادي ، وأما الثاني فهو هارون الرشيد .

وحين شعرت بمكانتها عند المهدى ، وحين رأت أن فى استبقاء موسى وهارون ما يعصمها من كل تغير او انحراف فى قلب المهدى ، افضحت عن سر مكتوم ، وقالت له :

ان لى أهل بيت يحرش فى اليمن .

قال المهدى : ومن لك من الأهل ؟

قالت : لى أختان ،اسم احداهما « أسماء » واسم الأخرى « سلسل » - ولى ثم ، وأخوان .

كتب المهدى باحضار اهلها فاحضروا . وتزوج جعفر بن أبى جعفر المنصور ، وأخو الخليفة المهدى « سلسل » التى ولدت زبيده التى تزوجها فيما بعد ابن عمها هارون الرشيد .

بقيت أسماء عذراء فترة من الزمن ثم تزوجها الخليفة المهدى بحيلة احتالها .

تقدم الى الخيزران وقال لها : قد ولدت لى رجلين هما موسى وهارون ، وقد بايعت لهما بالخلافة من بعدى ، وما أحب أن تبقى جارية ، واحب أن أعتقك ثم تخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك .

قالت : الصواب رايت يامير المؤمنين .

اعتقها المهدى وصارت حرة ، ثم خرجت الى مكة ، وانتهزها المهدى فرصة فعقد على أسماء ، ومهرها مليون درهم ، ووهب لها مليون درهم أخرى .

وعند عودة الخيزران من مكة خرج المهدى لاستقبالها ، وكانت الأخبار بزواجه اختها قد وصلتها ، وكانت فى يأس من امر عودتها الى المهدى من حيث أن الشريعة قد حرمت الجمع بين الأختين - لذا لم تكد تراه حتى بادرته القول فى جرأة :

ما خبر اسماء ، وكم وهبت لها ؟

قال : من اسماء ؟

قالت : امرأتك

قال : ان كانت أسماء امراتى فهى طالق .

قالت : طلقتها حين علمت بقدومى .

قال : اما اذ علمت فقد مهرتها الف الف درهم ، ووهبت لها الف الف درهم .

وعقد على الخيزران كما وعدها وتزوجها .

قال الواقدي : دخلت يوما على الخليفة المهـــدي فدخل الى دار الحريم ثم خرج متنكرا ممتلئا غيظا . فلما جلس قلت :

يا امير المؤمنين ، خرجت على خلاف الحال التي دخلت عليها ؟

فقال : نعم . دخلت على الخيزران ، فوثبت علي ، ومدت يدها الى ، ومزقت ثوبي وقالت لي ياقشاش ، اي خير رايت منك ؟ لقد اشتريتها من نخاس ، ورأت مني مارات وعقدت لابيها ولاية العهد . ويحك ، أفأنا قشاش ؟

قال الواقدي : فقلت : يا امير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان النساء يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام ـ وقال : خيركم خيركم لاهله وانا خيركم لاهلي ـ وقال : قد خلقت المرأة من ضلع عوجاء ان قومتها كسرتها . وحدثته في هذا البـاب بكل ما حضرني ، فسكن غضبه ، واسفر وجهه ، وامر لي بالفي دينار . وقال : اصلح بهذه من حالك ، فاخذتها وانصرفت .

قال الواقدي : فلما وصلت الى منزلي واتاني رسول من الخيزران فقال لي :

تقرأ عليك سيدتي السلام وتقول لك : يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به امير المؤمنين فاحسن الله جزاءك ، وهذه الفا دينار الا عشرة دنانير بعثت بها اليك لاني لم أحب أن أساوي بين صلتي وصلة امير المؤمنين . ووجهت الى بالثواب .

وقد دام سلطانها على الخليفة المهدي حتى آتته المنية عام ١٦٩ هـ

وحين ولي الخلافة ابنها موسى الهادي أرادت ان تستبد بامور الخلافة ، وتدخلت في كثير من الشئون ـ لولا أن وقف منها ابنها موقفا حازما ، ورغب في الا تسلك به مسلك أبيه .

لقد أرسل اليها ذات يوم يقول : لا تخرجي من خدر الكفاية الى بداده التبذل . فانه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك ، وعليك بصلاتك ، وتسبيحك ، وتبتلك ، ولك بعد هذا اطاعة مثلك فيما يجب لك .

كان اول امره يحييها الى كل ماتسأل قياما بحق الأمومة وبرا بها . ومضى على ذلك اربعة أشهر حتى رأى أن الناس قد طمعوا فيها ، واغتالوا عليها . وحتى علم أن حجابها قد رسموا ألا يقف أحد ببابها راكبا دابته ـ كائنا من كان ـ بل يجب عليـه النزول .

كلمته يوما في أمر لم يجد الى اجابتها اليه من سبيل ، واحتج بحجة

فقالت له : لابد من اجابتي اليها .

قال : لا أفعل .

قالت : فاني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك المالكي - وهو من رجال الدولة العباسية .

فغضب موسى الهادي وقال : ويل عمل ابن الفاعلة ! قد علمت انه صاحبها ، والله لا قضيتها لك .

قالت : اذن والله لاسألك حاجة أبدا .

قال : اذن والله لا ابالي .

وحمي ، وغضب ، فقامت مغضبة .

فقال لهـا : مكانك تستوعبي كلامي ! والله - والا فانا بقي من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم - لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي ، او أحد من حاشيتي أو خدمي ، لاضربن عنقه ولأقبضن ماله ، فمن فعل فليلزم ذلك .

ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم ؟ اما لك منزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ او بيت يصونك ؟ .

اياك ثم اياك ، ما فتحت بيتك لمن او ذمي .

فانصرفت من عنده ما ترى شيئا مما في طريقها ، ولم تطق عنده بعدها ولا مرة بعدها ، ومالت كل الميل الى ابنها الآخر هارون الرشيد .

وجمع موسى الهادي يوما القواد الذين يأتون باب الخيزران فقال لهم :

أيما خير انا ام أنتم ؟

قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين .

قال : فأيما خير امي ام أمهاتكم ؟

قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين .

قال : فأيكم يحب أن تتحدث الرجال بحسن امه ، فيقولوا : نعلب أم فلان وصنعت أم فلان ؟

قالوا : ما أحد منا يحب ذلك .

قال : فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها ؟

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البته .

شق عليها ذلك فاعتزلته ، وحلفت ألا تكلمه . فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة .

***

ريطة

كانت هي الأخرى زوجة للخليفة المهدي ، ولم تكن جارية وانما هي ابنة عمه ـ أبو العباس السفاح ـ وولدت له هي الأخرى ولديه هما عبيد الله بن المهدي ـ ومن قصصها مع أبي دلامة الشاعر هاتين القصتين

(١)

كان ابو دلامة ـ على شدة انصاله بأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي ـ كارها للصلوات ، مستهترا ، يشرب الخمر . فالزمه المنصور القيام بفرائض العبادات في شهر رمضان خاصة . فقال له ابو دلامة : البلية في شهر أصلح منها في طول الدهر .

وكان المهدي بن المنصور يبعث الى أبي دلامة في شهر رمضان في كل ليلة فرسيا يجري به للصادة .

شق ذلك على ابي دلامة ، وفزع الى الخيزران ـ وكل اصحاب المهدي ليشفعوا له في الاعفاء من القيام في هذا الشهر المبارك ـ ولكن الخليفة لم يجبهم الى طلبهم .

قال ابو عبيد الله معاوية الأشعري الكاتب لابي دلامة : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكرك ؟

قال أبو دلامة : أتم شكر .

قال : عليك بريطة زوجة المهدي فانه لا يخالفها .

قال أبو دلامة : صدقت والله .

ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أيلمـا ريطـة أنى كنت عبـدا لأبيهـا
فعلى برحمـه اللـ ـه وأوصى بى اليهـا
وأراهـا تسـيتنى مثـل سـيان أخيهـا
جاء شهر الصـوم يمشى مشـية ما أشتهيهـا
قائدا لى ليـلة القـ ـدر كأنى أتبعهـا
تطلع القيـله شـهرا جبهتى لا تاتليهـا
ولقـد عشت زمانـا فى قيـافى وجهـا
فى ليـال من شتاء كنت شـيحا اشـتهيهـا
قاعـدا اوقـد نارا الصـيان أشـتويهـا
وصـبـوح وغبـوق فى عـلاب أحتسيهـا
ما أبالى ليـلة القـد ر ولا تسعينهـا
فاطلبى لى فرحـا مـ ـهـا وأحرى لك فيهـا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت اليه بجواب تقول فيه :

اصطبر حتى تمضى ليلة القدر .

فكتب اليها : انى لم أسألك أن تكلميه فى اعفائى عاما قابلا ، واذا مضيت ليلة القدر فقد فنى الشهر.

وكتب تحت ذلك هذه الأبيات :

حـالى الهـك فى نفس قـد احتضرت
قامت قيامتهـا بين الصـلينا
ما ليـلة القـدر من همى فاطلبهـا
انى أخـاف المنـايا قبـل عشرينـا
يا ليـلة القـدر قد كـرت أرجلنـا
يا ليـلة القـدر حقـا ما تمينـا
لا بـارك الله فى خـير أؤمـلـه
فى ليلة بعـد ما قمنا ثلاثينـا

فلما قرأت الأبيات ضحكت ودخلت الى الهدى فشفعت له اليه ، وانشـدته الشعرين ، فضحك الهدى حتى اسـتلقى ودعـا بابى دلامة ، وكانت ريطة معه ، وقال له :

قد شفعت زبيدة فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم .

فقال أبو دلامة : أما شفاعة سيدتي فيّ حتى أعفيتني فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة الآلاف فما أعجبني ما فعلته . أما أن تتمها بثلاثة الآلاف فتصير عشرة آلاف ، وأما أن تقضيني منها الفي فتصير خمسة آلاف ، فإني لا أعلم حساب السبعة .

فقال المهدي : قد جعلتها خمسة آلاف .

قال أبو دلامة : أعيذك بالله أن تختار أدنى الحالين وأنت أنت . فضحك به المهدي ، ثم كلمته زبيدة فيه ، فأتمها له عشرة آلاف درهم ، فأحال على الخازن وأخذها .

(ب)

وكانت زبيدة قد وعدت أبا دلامة أن تعطيه جارية . فمدحها بعدة قصائد ـ وهي لا تفي بالوعد .

وخرجت زبيدة من بغداد الى مكة حاجة ، فحجت ورجعت ، وكانت لهـا جارية يقال لهـا : أم عبيده ، وكانت بربرية ، تخرج ، وتكلم الرجال ، وتبلغ رسائل سيدتها زبيدة .

فقال أبو دلامة لأم عبيدة حين عيل صبره :

أبلغ سيدتي ان شئت يا أم عبيده	
انهـا ارشدهـا اللـ ـه وان كانت رشيده	
وعدتني قبل ان تحـ ـج للحج وليده	
فتمطرت وأرسلـ ـت بعشرين قصيده	
كلمـا تحلق اولى بدلت اخرى جديده	
انني شيخ كبير ليس في بيتي قعيده	
غير مثل العول عندي ذات أوصال مديده	
وجهها أسمح من جو ـ ن طوى في عصيده	
ذات رجل ويد كلتـا هما مثل القديده	

فدخلت أم عبيده على السيدة زبيدة فانشدتهـا الشعر . فأمرت له بجاريه ومائتي دينار للنفقة عليها .